المعرفة وتطورها عند الإنسان

د. نادي الديك*

* مشرف أكاديمي منطقة رام الله التعليمية

ملخص:

في هذه الدراسة يحاول الباحث أن يتتبع أوليات المعرفة وتطورها عند الإنسان، منذ بدء الخليقة حتى اكتملت أدوات التفكير لديه، وبدأت تأخذ مسارات متعددة في تعريف الآخرين بها، وقد اتضح ذلك من خلال النصوص الدينية والإبداعية التي تعامل معها الإنسان، حيث اعتمد الباحث المنهج التكاملي في التعامل مع النص والغوص في أعماقه، حتى اتضح يقيناً إن المعرفة لا تقف عند حد، وهي ليست حكراً على أحد دون غيره.

وأوضحت الدراسة أن أرض العرب هي الموطن الأول للخلية البشرية الأولى ومنها انطلقت أوليات المعرفة ولبنات الحضارة الإنسانية.

Abstract

The researcher, in this study will shed the light on the chronological development of knowledge from the beginning of the world (creation) going through the development of thinking instruments until completion by the different branches and approaches to knowledge.

This can be apparently seen through the religious and creative texts developed by man (human being). In his study, the researcher applies the methodological integral approach in dealing with texts which in the end confirm that knowledge has no limits and is not exclusive to one person than others.

As a matter of fact, Arab lands were the first homeland from which the basis of knowledge and civilization had been launched.

المعرفة وتطورها عند الإنسان

مقدمة:

المعرفة عند الإنسان عميقة الجذور، بعيدة الدلالات، وبما أننا لا نستطيع استبطان أوليات المعرفة دون بحث أو غوص في أعماق التاريخ، فقد ارتأينا أن نسهم ببحث يعالج هذا الموضوع حتى يخدم المعرفة، ويتتبع خطى تطورها منذ تكوين اللبنة الأولى للحياة البشرية على سطح الأرض، أي منذ نزول آدم على الأرض حتى استقرار الإنسان وخلقه نهجاً تكاملياً في حياته.

لذا لجأنا أولا إلى الاعتماد على القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه لأنه يتضمن حقائق أزلية تعد بمثابة أنوار ساطعة تهتدى بها الأمم في مسيرتها المتصاعدة لبناء الحضارة الإنسانية، ثم تتبعنا الأمر في حكايات الأولين وأساطيرهم مثل قصة الطوقان وملحمة جلجامش مروراً بالطقوس التي اتبعها السحرة، والعادات التقاليد السائدة في المجتمعات القديمة التي أسهمت في خلق النتاج القصصي الذي يكون الإنسان فاعلا فيه أو ناقلا له حتى تكتمل حلقات المعرفة.

الخلق ولغة التعبير الأولى:

خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض ومن ثم الملائكة قبل الإنسان، وهذا الأمر نستشفه من قوله تعالى مخاطباً الملائكة عند خلقه للإنسان: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون".[1]

فالله- سبحانه- يعلم بواطن الأمور وخوافيها، لأن معرفته فاقت كل شيء، فمع خلق الإنسان بدأت رحلة الحياة من بعد آدم وحواء، وبعد الخطيئة التي ارتكباها في الجنة قضت مشيئة الله إنزالهما إلى الأرض: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"[2].

فنرى أن الله سبحانه بحكمته جعل الشجرة والاقتراب منها وسيلة وسبباً فاعلين لإنزال آدم من الجنة؛ لأنه يقر- سبحانه- بأن آدم خليفته في الأرض، فمع نزول آدم وحواء من السماء

إلى الأرض نرى محنة الحياة الأرضية قد بدأت فعلاً، وقد اختلف في مكانية اللقيا بين آدم وحواء، فبعض الدارسين يرى أنها أرض العراق التي غدت موطن التلاقي الإنساني الأول يقول أحدهم: " عندما أخرج آدم من الجنة وأنزل من السماء كان أول ما وطئت قدماه أرض العراق، وهذا يشير إلى اعتقاد قديم عند الناس، بأن العراق هو أول موطن للبشرية الأولى، ومن الطبيعي أن القصة أدركت أن في العراق، دون بقية رقاع ارض الله، خصائص وميزات وسمات قريبة من الجنة دفعت آدم إلى اختيار أرضه للنزول فيها "[٣]

فآدم أول إنسان يهبط إلى الأرض من السماء، وتليه حواء وبعد أن استقر به المقام لا بد أنه بدأ حياته الطبيعية كما فطرها الله سبحانه، ولا بد من وسيلة للتخاطب والتفاهم لبيته وأسرته فيما بعد، وهذا يجعلنا في حيرة من أمرنا تجاه اللغة الأولى التي خاطب بها الله آدم، ومن ثم استعملها آدم فيما بعد، فالمعلومات المتوافرة لدينا لا تعطينا حالة يقينية عن أوليات اللغة المستخدمة عند النواة الأولى للبشرية، لأن آدم صاحب أول لغة عرفت على وجه الأرض، وهذه اللغة التي استخدمها - كما نعتقد - تكون تلقينية ؛ أي أن الله- سبحانه- قد وهبه إيّاها، أو أنه ربما اختار قيماً وأفكارا ومصطلحات أصبحت تشكل مادته المعرفية الأولى، ومن ثم بدأ يتداولها مع باقي أسرته والناس من بعده، ومثل هذا الأمر لم يتركه الباحثون على علاته، بل تكلموا فيه وأدلوا بدلوهم فيه من خلال مؤلفاتهم وبحوثهم.

وأول كتاب وصلنا يخص هذا الموضوع هو السيرة لابن هشام الذي رواه عن اسحق بن يسار، وقد نقده ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء لما رواه من أشعار للجن والقبائل والأقوام البائدة في فترة سحيقة يكتنفها الغموض لقدمها وعدم التأكد من كنه اللغة التي كانت تلك الأقوام تستعملها يقول الجمحي: ((كان اسحق بن يسار أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، أتيت به فاحمله ولم يكن ذلك عذراً، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جأوز ذلك إلى عاد وثمود. فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول، من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه من آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول: " فقطع دابر القوم الذين ظلموا "[٤] أي لا بقية لهم، ويقول تعالى: " وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى "[٥]. ويقول في عاد " فهل ترى لهم من باقية "[٦] ويقول[٧]: " وقرونا بين ذلك كثيراً "[٨].

إن المتتبع لهذه المسألة يجد أن القدماء قد محصوا الأخبار بعض الشيء، وأن بعضهم وقع

فيما رفضه من أشياء، إلا أن هذه الأمور تؤكد لنا أهمية البحث والاستقصاء في الحياة عامة والبحث العلمي خاصة.

بدايات المعرفة الإنسانية وتدرجها:

اتضح أن القرآن الكريم يخبرنا عن الأقوام السابقة بصورة جلية واضحة، وهذا يجعلنا نعيد التفكير مرات عدة قبل استنتاج الشيء المبحوث عنه، بهذا نقول إن أوليات المعرفة الإنسانية مجهولة الكيفية والأداء بمعنى أنه ليس من السهل التنبؤ أن الحالة المعرفية كانت كذا، ووصلتنا عن طريق كذا إلا إن حالة التخيل قد تسعف المرء وتجعله يضع بعض الاستنتاجات من خلال الاستقراء المتواصل للحياة ونظمها، فقد يكون هناك لغة أو وسيلة تخاطب لدى الناس سابقاً لم نعهدها نحن المعاصرين في بداية القرن الحادي والعشرين، فالإنسان الذي نزل من السماء وأنجب الأطفال وكون الخلية الأولى في الحياة البشرية لا بد أن يتفاعل مع بيئته المحيطة به، وحين سكن تجأويف الأشجار والكهوف معزولا عن حالة الاستئناس البشري التي يطمح إليها الإنسان بفطرته، وذلك لسعة المسافات وقلة السكان، نرى لحظة الخوف ترأوده من فترة لأخرى، وهذه حالة طبيعية تنتاب الإنسان وهي الشعور بالخوف والاضطراب وعدم الطمأنينة، لأن النفس البشرية مطواعة للمواقف كلها، أي أن استمرارية العيش على وتيرة واحدة مستحيلة بل تكاد تكون منعدمة.

فالإنسان الذي يعيش في الكهوف وتجأويف الأشجار لا بد أن يخلق حالة من التناغم كي يستأنس بحياته، ويجعلها ميسرة سهلة مقبولة إلى حد يصلح معها التواصل والعيش بسلام حتى تتراكم لديه الخبرة والتجربة من خلال الحياة ونظمها التي قد يصنعها بذاته، أو يأخذها من محيطه والآخرين، هذه الخبرة تجعله يقفز من محيطه وفطرته الغريزية إلى ما هو أسمى من ذلك واعمق، من هنا يأتي البحث عن الذات، مما يخلق حالة خاصة في الإنسان وهي البحث عن اللذة والترفيه. فاللذة ليست أحادية الجانب بل متشعبة العطاء والتوجهات بذلك يكون الإنسان قد حقق أشياءً كثيرة، ألا وهي الوصول إلى الهدف المنشود، ومن ثم خلق سبل وقيم جديدة لم يكن ليعرفها لولا البحث والحاجة والاستنباط، فكلما حقق الإنسان مكسبًا أو هدفاً محددين حاول الاستزادة من خلال ربط المكاسب والأهداف ببعضها بعضاً.

فكما يكون البحث عن الحياة وتفاصيلها، يكون البحث عن اللذة ومضامينها لان الإنسان يحأول ان يعرّف نفسه للآخرين عبر سبل مختلفة لذلك اختلفت الأساليب عند الناس من

إنسان لآخر، بمعنى قد يعبر الإنسان عن نفسه بوساطة الغناء والآخر بالإشارة والثالث بطريقة الرسم، وهكذا حتى يتجسد لدى الناس قيم وثقافات مختلفة يعبرون عنها بسبل عدة قد تكون معروفة وقد تتمخض مع البحث عن شيء جديد.

فالعزلة قد تولد حالة الخوف وهذه الحالة بدورها تنمي في الإنسان حب الخلاص والسيطرة على النوازع قدر المستطاع، فقد تكون حالة السرد وإخراج النغم المتتالي بوساطة اللحن من العوامل التي يريدها الإنسان، فمن خلال الفعل ورد الفعل ظهرت القصة فكما يقول (ايزاك دينتسين) " القصة هي الفن المقدس، وكانت أول بدء الخليقة، ولكنك ستتذكر أن الشخصيات الإنسانية لم تظهر إلى الوجود إلا في اليوم السادس نعم ففي ذلك اليوم كان لا بد لهم من أن يخلقوا لأنه حيث توجد القصة تجتمع من اجلها الشخصيات "[٩].

التبادلية في المعرفة الإنسانية:

بما أن الحياة تحتاج إلى تقسيم العبء على الآخرين لذلك جاء دور كل إنسان مهماً كي يكمل دورة الحياة، فالرجل الذي يبحث عن أسباب الرزق خارج مكان إقامته لا بد أن يسرد بنوع من الفخار والتدليل والمقدرة ما ينتابه من مشاعر وهموم وتعب، كي تختمر قرائن المعرفة بين المقيمين في البيت والراحلين عنه بانتظام، مما قد يجعل المهام تتداخل فيصبح دور الأم أكثر فاعلية مما يتصوره الآخرون، من هنا يدمج الواقع بالخيال، بمعنى أن الذي يقتبس عن المتحدث فكرة معينة لا بد أن يزيد عليها بطواعية الخيال وسعة المعرفة فيكون دور الأم الحاضنة لأولادها دورا متناميا مع الأيام ويزداد الخيال اتساعا كلما تمرس المرء في الاقتباس والتمرين على ذلك، لان مقدرة الإنسان العقلية تستوعب الشيء الكثير، وبالذات إذا ما قورنت الأمور بمثيلاتها وغير ذلك فقد يتخيل المرء ما كان يفعله الآخرون فكيف إذا تسأوت لحظات العيش واللقاء لأن " القوة العقلية عند الإنسان مؤكدة في جوهرها وان اختلفت درجاتها وينبني على ذلك أن يتخذ التطور في عادات الإنسان ومعتقداته أنماطا شديدة التشابه في مختلف أنحاء الأرض وفي شتى أنواع المناخ وذلك على الرغم من الاختلاف البالغ في درجة التطور وإذا فلعل قبيلة تعيش في مكان ما من الأرض ان تمثل درجة التطور التي اختطفتها قبيلة ثانية كانت تعيش في مكان آخر من المعمورة منذ ألوف السنين، ومن ثم فمأثورات القبيلة الأولى تلقي ضوءا على ماضي القبيلة الثانية حين لا تتوافر الوثائق التي تتصل بالتاريخ القديم "[١٠].

من هنا نرى أن التبادلية في الشيء وأسسه كانت العوامل الفاعلة على خلق القصة أو الحكاية،

وعندما نقول قصة فلا نظن أننا نعني هذا الجنس الأدبي الذي نعرفه اليوم، وإنما تلك الطريقة التي تعارف عليها السابقون كي تتلاءم مع معطيات حياتهم والبيئة المحيطة بهم، ومع التطور الحقيقي الذي يصيب الإنسان فكرا وثقافة وغير ذلك، مما يظهر عنده الاستعداد والميل لخلق أنماط معرفية متطورة لمواكبة روحية العصر الذي يعيشه، وكل ذلك كان يصلنا عن طريق نتاج الإنسان من الأدب والفن والسمات التعبيرية الأخرى، فأخذ الناس يروون ما يتناقلونه عن بعضهم بعضاً، فلا بد أن يكون المنقول يروى بأساليب مختلفة، بمعنى أن يكون بضمير المتكلم ومن ثم بضمير الغائب، وهذا تحصيل حاصل عند الذين يروون الخبر، لأن الذي يسرد الحكاية للمرة الأولى ويكون له اليد الطولى في صنعها وخلقها، لا بد أن يتكلم بضمير الذات، وكذلك الذي يروي الحكاية بعد سماعها، فقد يروي بضمير الغائب وهكذا يتم التبادل المعرفي بين الناس.

فكرة المصير وتطور المعرفة:

اقترنت الحياة البشرية في بداياتها الأولى بالإحساس المتزايد بقيمتها وأهميتها في ترسيخ ظاهرة الاندماج أو التآلف بين الإنسان ومحيطه، غير أن هناك ظاهرة شاذة عن معرفة الإنسان أخذت حيزا كبيرا من تفكيره، وخرجت به عن المألوف وهي ظاهرة الموت والحرص على الحياة، التي تظهر جلية للناس، فأخذوا يبحثون عن أصولها، وأول ظاهرة للموت عرفها الإنسان وقعت بين ولدي آدم هابيل وقابيل، حيث اخبرنا القرآن الكريم بذلك " فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجَزْتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فاصبح من النادمين " (١١).

فظاهرة الموت جعلت الإنسان يصدم بعواطفه ويبحث عن خفاياها ومبرراتها قدر مستطاعه إلا أنه عجز عن ذلك، وبقي الموت سرا إلهيّاً لا يعلمه غيره. بذلك شعر الإنسان بقوة خفية تسيطر على مقدراته وتوجهاته. وهذا الشعور جعل الإنسان يقف منها مواقف مختلفة فمرة يفر خوفا من مجهول وصولاً إلى مجهول آخر محتم، إلا أن نوازع الإنسان بفطرته جعلته يتجه صوب مراضاة القوة الخفية التي تسيطر عليه، لذلك التجأ إلى العبادات وأداء الطقوس التي تريحه نفسيا وترضيه معنويا، كي يشعر بالقرب من القوة الخفية التي تخيفه وتسيطر عليه، وبدأ بالتعرف على بعض العوامل التي تؤدي بالإنسان إلى الموت، فأيقن أن المرض

والجوع والحروب توصل المرء إلى الفراق الأزلي، لذلك بدأ يبحث عن كيفية الخلاص من المرض ليأتي الأمر على شاكلتين أولاهما، العلاقة بالقوة الغيبية لتحميه من قوة الغيب فجاء ما يسمى بالعلاقة بين رجال الدين والطقوس والقوى الخارقة وغير ذلك. وثانيهما بدأ يتلمس الشفاء من خلال الأعشاب التي تحيط به فبدأ بالقضاء على بعض الأمراض والأوبئة الفتاكة، حتى صرنا نرى ذلك مشخصا بوساطة النقوش التي تم اكتشافها عن طريق الحفريات حيث تعرفنا على بعض الأعشاب المستخدمة علاجيا، كزهر البابونج وغيرها من الأعشاب التي لم يزل الناس يستخدمونها في حياتهم اليومية، وكذلك عرف الإنسان سنبلة القمح بعد تدجينه وزرعه، وهناك رموز كثيرة تدلل على ذلك " فهذه البقية في التصورات الأسطورية الذكرية ما زالت تحمل خطوطا واضحة من صورة عشتار القديمة كروح للقمح والحبوب والإنبات، فروح القمح في هذه التصورات هي إلاهة القمح وقد خرجت من الطبيعة تمارس سيادتها عليها كما يفعل الآلهة الذكور، وليس اكتشاف (ديمتر) لزراعة القمح ونقلها للبشر إلا إشارة إلى كونها هي نفسها روح القمح القديمة، وشقرة شعر الآلهة هي شقرة السنبلة الأولى التي حلت بها روح القمح وتطابقت معها "[١٢].

من خلال ذلك نعتقد أن تدجين النبات والحيوان ما هو إلا جهد مطلوب ومراد في حد ذاته من الإنسان ومن أجل الإنسان أيضاً، وهذا يدلل على أن الإنسان بدأ ينحو منحى الحضارة ويرتقي سلمها. تلك الحضارة التي بدأ يصنعها بيديه ويحافظ عليها ويديم عطاءها مع الأيام. من هنا نقول إن معرفة الإنسان بالأشياء جاءت تدريجية؛ أي بعد أن كانت معرفته نظرية أصبحت حقيقة فعلية، تطبق على أرض الواقع، وهذا لم يأت من فراغ أبدا وإنما جاءت نتيجة لتراكمات معرفية مقصودة ومبحوث عنها ومعززة مع الأيام بثقة الإنسان. إن تبلور القيم الحضارية عند الإنسان ورسوخ المعرفة لديه جعلته يعيش وفق نظم وقوانين متعارف عليها، وتظهر مع استمرارية الحياة. حتى صرنا نجد كل مجموعة من البشر تعبر عن نفسها بطرائق مختلفة حتى تشعبت الأمور ووصل الأمر إلى المعتقد، إذ أخذت كل قبيلة وسيلة في التعبير عن المعتقدات والعقائد التي يدين بها أبناؤها ويقدسونها حتى غدت من منجزاتهم التي يعتزون بها ولربما يضحون بأنفسهم دفاعاً عنها، دون النظر إن كانت تلك المعتقدات سماوية أم إنسانية وضعية، علما أن المجاورة في السكنى تؤدي إلى التأثر بالمفاهيم والمعتقدات والاقتباس منها، فأخذ الناس يعبرون عن معتقداتهم حتى زادت الأناشيد والتراتيل مما جعل رصيدها يتضاعف لدى الناس المهتمين بها. هذه الأشياء جعلت الفروق بين النوازع الإنسانية

البشرية والوجود الإلهي واضحة جلية، على الرغم هن وجود بعض الصلات العاطفية بين الإنسان والذات الالهية ؛ لأن عواطف الآلهة إنسانية خالصة، وهنا لا بد من وجود رابط معين بين هذه العواطف ألا وهي الأحداث. والأحداث كما تقول سهير القلماوي عصب القصص ومادتها[١٣].

وبما أن القصص تكون مادتها الأحداث الروحية والفكرية، لذا اتسعت رقعتها وأخذ الناس يتناقلون من القصص زيادة على ما أنتجته أخيلتهم تجاه آلهتهم التي خصوها بالنتاج الثري. كل ذلك جعل بعض الأقوام تشتط عن القيم العقائدية السليمة التي تنسجم مع روحية الحياة الإنسانية بفطرتها وتطوراتها. لذلك نزل عقاب الرب على الناس بوساطة الطوفان، حيث يتضح من التوراة أن الله غضب على الناس فأرسل الطوفان عليهم ليمحوَ كل مخلوق على الأرض " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض " وتأسف في قلبه قال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب "[١٤].

وكذلك جاء وصف الطوفان في التوراة كما يلي " وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض، وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه الماء، وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزواحف التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس، كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل اليابسة مات فمحا الله كل قائم على وجه الأرض، الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسون يوما "[١٥].

وقصة الطوفان التي جاء ذكرها في الكتب السماوية لم تنفرد بها تلك الكتب وإنما نجدها في الأدب العراقي القديم في قصة الطوفان البابلي، وهذا يدلل على أن الإنسان العربي القديم يقدر قيمة الحساب والعقاب وقد دونها في إبداعاته الأدبية. وهذا يجعلنا نوقن أن الأدب مرآة الحياة في كل العصور، إلا أن مسميات الآلهة تختلف بعض الشيء عند العراقيين القدماء عما جاء عليه في الكتب السماوية " القرآن – التوراة " فكما يقول د. فاضل عبد الواحد " في اعتقادنا ان السر يكمن في أن الطوفان كان يتعلق أساسا بمسالة خلق الإنسان ومن ثم

بتكاثره وانتشاره في الأرض كما يتضح ذلك جليا من قصة الطوفان البابلية " اتراخاسيس " ومن التوارة أيضاً، ولهذا فعندما قررت الآلهة إحداث الطوفان لتعاقب به الإنسان لأنه كان يزعجها بصخبه وضجيجه حسب الرواية البابلية " أو بسبب انتشار شره وظلمه بموجب التوراة " فقد كان منطقيا أن يتصف بالشمولية ليهلك الإنسان حيثما وجد في الأرض؛ أي دون اقتصاره على بقعة معينة "[١٦].

وقد جاء في خاتمة قصة الطوفان البابلية (اتراخاسيس)ما نصه :

وهكذا جئنا بالطوفان
غير أن الإنسان استطاع من البقاء رغم الدمار
أنت يا مشير الآلهة العظام
بأمرك أقود أنا المعركة
وفي مديحك فليستمع الآلهة ايكيكي
إلى هذه الأنشودة وليمجدوا عظمتك
لقد أنشدت الطوفان إلى الناس كلها
فاستمع إليه ![١٧]

الكون مجال المعرفة الإنسانية

إن قصة الطوفان البابلية وغيرها من النصوص الأدبية القديمة تؤكد لنا حرص الإنسان على تفاعله مع الحياة والتأمل الفاعل في استبطان نظمها وقوانينها . وهذا التأمل والتفكير جعل الإنسان يصل إلى مرحلة التعجب في الشيء، ويحاول فتح مغاليقه، وكشف سرّ ناموسه المبهم عليه، فكان الكون وتشكيلاته أحد العوامل الفاعلة في لفت النظر وجلب الانتباه وخلق الحيرة، فالقمر واختلاف أشكاله على مدار الشهر، ومن ثم اختفاؤه لفترة وجيزة ومن بعدها الظهور كي يعود على هيئته التي عرف بها، والشمس وتقلباتها في قوة حرارتها وضعفها حسب المواسم والفصول ومن ثم الاختفاء وكأنها قناة تغوص في لجين تتساقط عليه الاشعة البنفسجية وغير ذلك من مكونات الكون جعلت هذه الكينونة مادة للنسج القصصي والخيال المبني على التأمل والمناجاة، ومثل ذلك جعل سيدنا إبراهيم يتأمل في الكون ويقر بوحدانية الله فيما بعد حيث جاء على لسانه في القرآن الكريم " وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض

وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفَل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين" . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين "[١٨].

والتفكر في خلق الكون لم يكن حكرا على أحد أو مجموعة دون أخرى، فقد جاء في الأساطير اليونانية أن السبب الذي من أجله تعبر الشمس من الشرق إلى الغرب هو تصورهم أنها سائق يسوق مجموعة من الجياد اللامعة عبر السماء التي ظنوها قبوا منحنيا فوق الأرض المسطحة. كما فسروا عودة الشمس إلى مقرها دون أن يراها أحد، بأنها تبحر في كأس هائلة عبر نهر عظيم يحيط بالأرض وسموه أوقيانوس.[١٩]

وللمصريين القدماء نظرتهم كذلك في أصل الأشياء وانبعاثاتها فالزلازل كما ظنوها هي نتيجة لحركة الأرض، وهي تنقل على قرني الثور الضخم الذي يحملها، فإذا أصاب الثور التعب والإعياء نقل الأرض من قرن إلى آخر بذلك تهتز وتضطرب ويزعم "رواة الأخبار من العرب أن الأرض على ماء، والماء على صخرة، والصخرة على سنام ثور، والثور على كمكم والكمكم على ظهر حوت والحوت على الريح، والريح على حجاب ظلمة، والظمة على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق "[٢٠].

وهناك بعض القبائل تعتقد أن الشمس والقمر امرأتان " أما الشمس فهي امرأة مربوطة بجبل يجرها به زوجها وسيدها على الدوام، والقمر كذلك امرأة وزوجها عدو للإنسان وهو يصنع الشراك من الحبال ليوقع بها الرجال، ولكنه يفشل في الايقاع بالإنسان، لأن بعض الفئران الصديقة للرجل تترصد زوج القمر وتقرض حبال شراكه، والنجوم أطفال القمر وفي وقت ما كان للشمس أطفال كثيرون كعدد أولاد القمر، وخافت الشمس والقمر الا يتحمل الإنسان حر هذا العدد الكبير منهم فاتفقا على أن تأكل كل منهما أطفالها، ولكن القمر لا تنفذ الاتفاق وأخفت عن الشمس صغارها، وبعد أن أكلت الشمس أولادها أظهرت القمر أطفالها للوجود، فغضبت الشمس غضباً شديداً وأخذت تطارد القمر لتقتلها. ومنذ ذلك الحين وهي تطاردها، ومازالت تريد اللحاق بها لتنتقم من خداعها[٢١].

وفي التوراة نجد أنه في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة خالية وعلى وجه القمر ظلمة، وروح الرب ترف فوق الماء[٢٢].

ومسألة النور والظلمة من المسائل المهمة التي بحثها الإنسان وتطرق لها، وكانت له فيها آراء

متعددة منها ما جاء مطابقا لما ورد بشأنها في الكتب السماوية، ومنها ما جاء مخالفاً لها على الرغم من تعدد الآراء والتوجهات. " ومن المثير للتأمل حقا أن كثيرا من أساطير التكوين لم يربط بين الشمس والنور، ولم يجعل صلة بينها وبين تتابع الأيام، ففي أسطورة التكوين البابلية تظهر دورة الأيام واختلاف الليل والنهار، قبل ظهور الشمس إلى الوجود "[٢٣].

والذي يتتبع التوراة يجد هناك تمييزا بين الليل والنهار قبل ان يخلق الله الشمس، فخلْقُ النور تم في اليوم الأول من أيام التكوين " وقال الرب ليكن نور فكان نور ورأى الرب النور أنه حسن وفصل الرب بين النور والظلمة ودعا النور نهارا والظلمة دعاها ليلا "[٢٤]، أما خلق الشمس فلم يتم إلا في اليوم الرابع من أيام التكوين " وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وسنين وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك فعمل الرب النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل . . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا "[٢٥].

الأساطير ودورها في تكون المعرفة:

إن الذي يدرس الحضارات القديمة، والأساطير التي وصلتنا عبر الحفريات والنقوش يجد أن العلاقة قائمة بين الناس حول أهمية الشمس والقمر، وأيهما أفضل وإلى أيهما تميل مشاعر الناس. فنجد أن القمر يأخذ حيزا كبيرا في تفكيرهم وطقوسهم، وجعلوا القمر امرأة فاعلة تتدخل في مجريات الحياة كلها بدءاً من الزراعة والنماء، وصولا إلى الجنس والعلاقة الجنسية. وكانت الشعوب تدخل القمر وأشكاله المختلفة في طقوسهم كافة " وإضافة إلى خصوبة الأرض، فإن القمر مسؤول عن خصوبة النساء " ففي (غرين لاند) يسود الاعتقاد بأن القمر هو الذي ينفخ الحياة في أرحام النساء، لذلك فإن المرأة غير الراغبة في الحمل لا تنام على ظهرها ليلا دون أن تغطي منطقتها بإحكام، خوفا من تسلل شعاع القمر. وفي نيجيريا يقتصر دور الفعل الجنسي الذي يمارسه الرجل على تسهيل مهمة القمر الذي يعتبر المسؤول الحقيقي عن الحمل. ولدى قبائل الماوري في أمريكا الشمالية يسود الاعتقاد بأن القمر هو زوج النساء جميعاً، وتعتقد بعض القبائل في منغوليا ومناطق أخرى من العالم بأن القمر قادر وحده أحيانا، ودون تدخل الرجل على إخصاب النساء. . . وتقوم المرأة المتزوجة حديثا لدى بعض هنود تكساس بالوقوف عارية في وعاء مملوء بماء تم تعريضه لضوء القمر، وفي بعض روايات ولادة بوذا انه قد ولد من عذراء لقحها ضوء القمر، ويصف الفرس القمر بأنه حافظ بذور

الثور لأن أسطورة قديمة تقول: إن الإله الثور قد أودع بذوره المخصبة في القمر. وفي أنحاء كثيرة من العالم ما زالت النساء ترفع المولود الجديد عالياً نحو القمر ليبارك نموه. وفي أوروبا الوسطى اليوم تحذِّر الفتيات بعضهن بعضاً مازحات من الشرب من ماء بركة ينعكس عليه خيال القمر لكي لا يحملن، وفي مقاطعة (كملن بريتاني) بفرنسا يتندر الناس بالقول إن على المرأة أن لا تكشف جزأها الأسفل تحت ضوء القمر وإلا حملت منه[٢٦].

وقد أخذت النار مكانة لا يستهان بها في تفكير الإنسان القديم وطقوسه، بغض النظر عن محل سكناه وثقافته، فنجد أصحاب الحضارات القديمة في المشرق العربي والهند وأوروبا قد أعطوا النار مكانة مرموقة وفاعلة في حياتهم، وكانوا يقرنون قوة النار بقوة المحصول وغزارته، وفي المناسبات الدينية لم تنعدم النار أبدا. ففي عيد الفصح توقد النيران وتضاء الشموع وقد تدفن بقاياها في الأرض تيمنا بخصبها ونمائها فيما بعد. ونجد النار مقدسة عند الفرس والأكراد وهم يشعلونها إلى يومنا هذا في يوم النورز وهو أول يوم من السنة الإيرانية والكردية " ومن المناسبات الأخرى التي تقام فيها طقوس النار المقدسة يوم الأول من أيار، وهو احتفال كبير يقام في طول أوروبا وعرضها " ولعل أوضح مثال على الطابع العشتاري لهذا الاحتفال ما كان يقوم به المزارعون في منطقة ويلز ببريطانيا. ففي عشية أول أيار يقوم بضعة رجال بالتوجه إلى الغابة القريبة فيحتطبون كمية من أغصان الأشجار يأتون بها إلى القرية فيشكلون منها صلبانا صغيرة توضع حول دائرة الوسط، وهي نفس الدائرة والصليب اللذين رمز بهما إنسان الثقافة النيوليتية في سورية إلى الأم الكبرى منذ الألف السابع قبل الميلاد ثم يقوم أحد الرجال بحك قطعتين من خشب البلوط ببعضهما فإذا اشتعلت فيهما النار، أوقد منها بقية الأغصان، وقام الناس بالرقص حول النار والقفز من فوقها وجلبوا قطعانهم إليها[٢٧].

بهذا تكون النار صيغة مباركة أو ظاهرة لها طقوسها التي تجمع الناس بمباركة وطمأنينة كي يتبادلوا الرقصات، وينعكس ذلك على مجريات حياتهم. وقد مارس العرب في جاهليتهم طقوساً مشابهة إلا أنهم يريدون استنهاض القوى الاخصابية في ملكوت الحياة، وتكون النار رسولا وواسطة خير فاعلة، وتمثل ذلك في انحباس المطر، فكانوا إذا احتبس المطر خرجوا لصلاة الاستسقاء فاشعلوا نارا في أذناب البقر وتركوها تنحدر من قمة جبل وعر، اعتقادا منهم بان تلك النار سوف تستنزل عليهم الغيث، وبينما كانت الابقار تندفع نحو السفح في خوار وضجيج كانوا يرفعون أصواتهم بالصلوات والأدعية[٢٨].

ومثل هذا الأمر يرينا أن العرب ربطت بين أشياء عدة في مثل هذه الطقوس، حيث اعتقدت

أن النار لها علاقة بنزول الغيث وفي الغيث والنار يكون الناس شركاء، فنرى النار والماء والعشب من مكونات الحياة الأولى وإلى نهايتها. وكذلك الربط بين خوار البقر والاستسقاء والدعوات والصلوات التي يهتفون بها. كل ذلك يؤكد أن الصلاة بين الميثولوجيا الإنسانية أصلها واحد، وربما كان لهذا الاعتقاد أثر في العرب، وفي ترسيخ مقولة أن الأرض موضوعة على قرني ثور. وهنا تكمن العلاقة بين البقر التي تلتهم أجسادها النيران وبين الثور الذي يحرك قرنيه، ومن هنا تتم عملية التناغم فينزل المطر كما اعتقادهم. وصلاة الاستسقاء لم تزل قائمة في معتقداتنا القائمة. إلا أن اليهود ما زالوا يستخدمون قرن الثور في عملية الاستسقاء بمعنى أن استسقاء اليهود في أيامنا لم يزل مرتبطاً بالميثولوجيا القديمة أي أن للبقر علاقة بها. وهم بذلك يقلدون القدماء ويخرجون أصواتاً تشبه خوار الأبقار وصيحاتها إلى حد ما باثين مشاعرهم إلى الله كي يستجيب لهم وينزل غيثه من السماء، فعملية المواءمة بين منطلقات السماء ومعتقدات الناس في الأرض قائمة منذ الأزل. ولم يقتصر الأمرُ على خلق العلاقة بين الشمس والقمر والثور، وإنما امتد الأمر ليشمل الكواكب الأخرى، فكوكب الزهرة ارتبط عند العرب وجعلوه " الأم العربية الكبرى، وكانوا يعبدونه لدى ظهوره ويسمونه " العزى " كما كانوا يتفاءلون لرؤيته ويعتقدون بقدرته على جلب الحظ وإشاعة السرور والسعادة، ونسبوا إليه دوافع العشق والجنس عند البشر وأسموه كوكب الحس[٢٩].

والعرب بحسهم هذا ومعتقداتهم لم يكونوا بعيدين عن طروحات أجدادهم العرب ومعتقداتهم في أرض الرافدين وجنوب الجزيرة العربية، لأن ما كان يعرف بالعزى عند الجاهلين هو نفسه المرأة الجميلة الفاتنة التي تعيش على الأرض قبل أن تصعد إلى الأجواء العليا، وتؤول إلى ذلك الكوكب الأحمر البراق عند البابليين. وهذا ما نجده عند الطبري صاحب التفسير عن الملكين "هاروت وماروت" عندما عمد إلى تفسير الآية الكريمة التي تحكي قصة الملكين المذكورين "واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعملون "[٣٠].

ان هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات في سورة البقرة لم تخبرنا بأي حال من الأحوال عن طبيعة وكيفية العلاقة بين الملكين والناس. إلا أن الطبري أفاد من معتقدات الناس المتداولة

وقد دونها، وكأنه وضع حالة من المقارنة بين فهمه للنص وبين المعتقدات المتداولة كي يوصلنا إلى أن هذه المعتقدات لم تكن بعيدة أو غريبة عن الفهم العربي وثقافته. فكما أورد الطبري أن الملائكة أخذت تشكو فجور البشر وضلالهم بعد آدم، فأراد الله ابتلاء الملائكة فأرسل ملكين من أكثرهم نقاوة هما هاروت وماروت وأنزلهما إلى الأرض ليأمرا بالمعروف وينهيا عن المنكر. ولكن امرأة فائقة الحسن والجمال عرضت لهما فاقبلا عليها وراوداها عن نفسها فأبت، واشترطت عليهما الخروج عن دينهما وعبادة الأوثان، فامتنعا ثم أتياها ثانية فتمنعت واشترطت عليهما ارتكاب معصية من ثلاث، فإما عبادة الأوثان، أو قتل النفس أو شرب الخمرة، فاختارا شرب الخمرة فسقتهما حتى لعبت برأسيهما فواقعاها. وهنا مرّ رجل، فخافا افتضاح أمرهما فقتلاه ثم انهما أرادا العودة إلى السماء فما استطاعا، فطلبت منهما المرأة تعليمها الكلام الذي يصعدان به إلى السماء ففعلا، فعرجت ولكنها بقيت معلقة هناك على هيئة كوكب الزهراء[٣١].

غاية المعرفة ووسائلها في تعرف الوجود المطلق:

تؤكد هذه القصة على تفرد الله بالمعرفة المطلقة، والعلم بالغيب. وهذا يعيدنا إلى مسألة خلق آدم عندما أعطت الملائكةُ رأيها، حيث وصفته- أي الإنسان- بالإفساد وسفك الدماء، إلا أن الله قد أكمل إرادته في خلق الإنسان، وهنا أيضاً نرى أن طبيعة الإنسان مختلفة عن طبيعة الملائكة. وكأنا نتلمس التوكيد المقصود وهو أن الملائكة لا تعلم إلا بما علمها اياه الله، وقد نتلمس بصيصا يتم به التفريق بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، فاللذة الدنيوية هي غير اللذة في الآخرة.

فاللذة الدنيوية متشعبة وقد خبرها الإنسان وحاول تطبيقها بكل مقوماتها، وإن اختلف الناس في ذلك تبعا للعرف والتقاليد، والقيم التي غرسها الإنسان في حياته من خلال تطور مراحله العمرية والثقافية. بذلك بدأ الإنسان يبحث عن المطلق في الحياة، وقد ظهرت هذه المسألة من خلال رسومات وتأملات الشعوب كلها، حتى أن صفة المطلق قد انتقلت لدى متصوفة المسلمين وجعلوها مقترنة بذات الله سبحانه وتعالى " واعلم أبده عين أزله وأزله عين أبده، وهما وضعان لله أظهر عنهما الإضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده، وإلا فلا أزل ولا أبد، كان الله ولا شيء معه، فلا وقت له سوى الأزل الذي هو الأبد، الذي هو حكم وجوده باعتبار مرور الزمن عليه، وانقطاع حكم الزمن دون التطاول إلى مسايرة بقائه.

فبقاؤه الذي ينقطع الزمان دون مسايرته هو الأبد فافهم . . . . "[٣٢].

وهذا ما عناه ابن العربي لكن جاء التعبير بصورة أخرى عن دائرة الحق والخلق فيقول "دائرة الوجود أولها حب وافتراق وآخرها حب وتلاق، محورها الحق ومحيطها ما لا يحصى من مجالي الوجود, الكل يخرج من المركز والكل يعود إليه "[٣٣].

فالحب أول ما خرج من دائرة العماء المغلقة، وبه تم خلق العالم، وبذلك تم التلاقي من خلال المرار الأعظم، وهكذا تبدأ عملية الخلق؛ أي أن الحب هو الدافع للانبعاث والخلق والالتحام بالأصول، ومن ثم الذوبان في الشيء الأصلي، فكأنا نتلمس من قول ابن عربي. إحالة إلى الآية الكريمة في سورة الرحمن " كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام "[٣٤]. وكأن الحب هو أس الحياة فهو الذي يرينا طريق الصواب، حيث يلتحم الإنسان بالذات الإلهية ومن ثم يعود كل شيء إلى أصوله بوساطة التحلل والتلاشي. ولا يبقى في الوجود غير الله ممثلا بوجهه الكريم الذي يفوق كل شيء حسنا وبهاء. وذلك أصبح دافعا لدى الناس ان يعبروا عن حبهم بطرائق شتى، حتى يشخص الرقص ظاهرا في الحياة، ويتمثل الرقص الديني كوسيلة تعبيرية التصاقية بمحبة الله ورسوله الكريم. وما الحركات التي تقوم بها الفرق الاسلامية في رقصاتها الا تعبير عن هذا الشيء. لذا فقد " لخص الرقص الديني لدى بعض فرق المتصوفة المسلمين، هذا السعي الروحي للوصول إلى المطلق بإدراك سر الدائرة وسر الحركة الدورانية للسواتيكا، ففي طقوس فرقة " المولوية " التي أسسها جلال الدين الرومي في القرن السابع الهجري وما زالت حية إلى اليوم في تركيا وسورية، يقوم الراقص على إيقاع الدفوف بالدوران على قدم واحدة باسطاً ذراعيه اللذين يرسمان حوله دائرة يضع نفسه على محورها، وبتسارع الحركة يرحل من محيط الدائرة إلى مركزها الظاهر نحو الباطن من محيط الخلق إلى مركز الحق إن ما يقوم به الصوفي بالدوران حول مركز الحق الذي يتلمسه في داخله، إنما يقوم به كل مسلم يؤدي فريضة الحج عندما يدور حول الكعبة مركز الحق الذي يتلمسه أهل الظاهر في الخارج[٣٥].

فعملية الرقص هذه ليست جديدة عند الناس بمعنى أن المتصوفة المسلمين لم يكونوا أصحاب اختراع لهذا الدوران حول الذات واليدان مفتوحتان مع الذراعين لتشكل دائرة مركزها الإنسان أو الذات المحبة لذات الله، حيث يتعانق الراقص والذاكر لله مع الله في هذه اللحظات. ومثل ذلك قد فعله السيد المسيح-عليه السلام-وان رفضته الكنيسة فيما بعد، ففي الإصحاح الرابع والتسعين وما يليه تقرأ أن السيد المسيح قبل أن يسلم نفسه، قد جمع حواريه الاثنى

عشر لرفع صلاة للإله الرب، وتأدية رقصة دورانية كان هو قائدها، من كلماته في تلك الصلاة " دأب الألوهة الدوران، سأنفخ في المزمار لترقصوا كلكم دورانا . . من تقاعس عن الرقص فانه سرُّهذا الاجتماع " وبعد الانتهاء يمضي السيد إلى المحاكمة والصلب ويتفرق الحواريون. أما يوحنا فيأوي إلى كهف في جبل الزيتون يبكي، وفي الساعة السادسة للصلب يخيم الظلام على الأرض كلها، ولكن المسيح يتجلى ليوحنا فيضيء الكهف ويتوجه إليه بالكلام قائلا: بالنسبة للحشود المجتمعة هناك أنا مصلوب وأوخز بالرماح أتتجرع الخل والمرار. . ولكن الصليب الذي ستراه وأنت هابط ليس هو الصليب. . ولست أنا من تراه معلقا على الخشبة "[٣٦].

فالرقص بشكل عام قد استخدم للتعبير عن انفعالات الإنسان وإظهار ما تستبطنه النفس من قيم ومكنونات حتى غدا التعبير بالرقص متنوعا ومتشعبا، إلى أن دخل باب الطقوس الدينية، حتى احتفظت به الديانات الشرقية كلها تقريبا، وغدا ملمحا بارزا للتعبير عن التقارب بين الذات الإنسانية والذات الإلهية وبالذات تلك الحلقات الدائرية التي كانت تقام ولم تزل إلى يومنا هذا. والرقص لم تحتكره عقيدة معينة أو طائفة بذاتها وإنما هو وسيلة تعبيرية ترفيهية شائعة لدى الطوائف المسيحية الشرقية وبعض الفرق الإسلامية، وخاصة تلك التي انتهجت بعض الطرائق للتعبير عن ذاتها بعد اتخاذها التكايا معلما من معالمها. ولم نزل نحن في أيامنا نشاهد تلك الرقصات المصاحبة للدفوف والرقائق النحاسية المسماة بالكؤوس مع تمايل أعضاء الجسد والانغماس الكلي مع اللحن الصادر والإيقاع المطلوب.

ولم ينفصل العامل الجنسي عن العوامل الأخرى التي نظر إليها الإنسان وتمحصها، علما أن الظواهر والعوامل الكونية التي تخلق أثراً في الذات الإنسانية قد ربطها الناس بالقوة الخفية، تلك القوة التي تسيطر على نواميس الحياة وقوانينها، بمعنى أن كل محصلة في الحياة قد ربطها الإنسان بالقوة الخفية الغيبية. ولا يشذ عن تلك القاعدة الإنسان نفسه فغرائزه وعواطفه ودوافعه تجد أصلها وفاعليتها مرتبطة بفاعلية إلهية، ولا يستثنى من ذلك الدافع الجنسي. لأن الإنسان ربطه بالمستوى النوراني الأسمى، وعدّه قبسا إلهيا، ففي العملية الجنسية "يتجاوز الإنسان شرطه الزماني والمكاني ليدخل في حال هو أقرب ما يكون إلى الآن الأبدي، فينطلق من ذاته المعزولة ليتحد بقوة كونية تسري في الوجود الحي، يفتح مخزون الطاقة الحبيسة لترجع إلى مصدرها الذي منه شعت وفي أجساد الاحياء أودعت. لم يكن الفعل الجنسي متعة فردية ونشاطاً شخصيا معزولا بل طقسا يربط الإنسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي. عبادة يكرر

فيها الفرد على المستوى الأصغر، ما قامت به القدرة الخالقة على المستوى الأكبر . . .[٣٧].

فالمتتبع يرى أن القدماء قد بنوا معابدهم الخاصة بالحياة الجنسية، وجعلوها مقدسة لا يجوز المساس بها أو إلحاق الأذى بروادها. والنصوص الأدبية القديمة مليئة بهذه الأمور مما يؤكد أن الجنس- كان ولم يزل- يشكل حالة لها قداستها وقيمها عند الناس، إلا أن الناس مختلفون في التعبير عن نوازعهم الجنسية كل حسب معتقده وثقافته، وملحمة جلجامش ترينا ما يصبو إليه، إذ تقع الإلاهة في حب البطل الذي هو نصف إله فيكون الحوار بينهما.

تعال يا جلجامش وكن حبيبي
هبني ثمارك هدية
كن زوجاً لي وأنا زوجا لك
ولكن جلجامش يدير ظهرا لحب الإلاهة ويأخذ في تعداد مثالبها وتهتكها:
أي حبيب أخلصت له الحب إلى الأبد؟
تعالي افضح لك حكاية عشاقك:
على تموز زوجك الشاب
قضيت بالبكاء عاما اثر عام
أحببت طائر الشقران الملون
ولكنك ضربته فكسرت له الجناح
وها هو في القيعان ينادي: وا جناحي
أحببت الأسد، الكامل القوة
ولكنك حضرت له مصائد مسبقا
أحببت الحصان السباق في المعارك
ولكنك قدرت عليه السوط والمهماز والأحزمة
أحببت راعي القطيع
ولكنك ضربته فمسخته ذئباً
يلاحقه أبناء جلدته
وتعض كلابه ساقيه
أحببت ايشولاتو بستاني نخيل أبيك
فضربته فمسخته خلداً.

فان أحببتني، ألا يكون نصيبي منك كهؤلاء؟[٣٨]

هذا ما يأخذه الذكر على الأنثى. وكأنا نحس أن المحبوب من طرف عشتار والرافض اتباع غرائزها يريدها صادقة غير متذبذبة في مشاعرها، ولا متجنية على أحد، ويرى في ذلك فضيلة عالية من طرف الرجل تجاه المرأة، وقد يكون الجنس بذلك طريقا أو مسلكا للصعود إلى الملكوت الأسمى، وهذا ما جاء في الحديث المروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام " عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن أناساً قالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ ان بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر "[٣٩].

فالجماع الحلال له صدقته المؤكدة كما ورد عن النبي، ومثل هذا يأتي من باب وضع الأمور في مراتبها أي وضع الأسس كي يقنن الجنس من خلالها وبها، وهذا نابع من نبي أو صادر عن نبي، اما الجماعات الأخرى قبل الإسلام أي الحضارات القديمة، فكانوا يمارسون الجنس بشكل جماعي وذلك لبعث روحية الخصب والنماء في الحياة، حتى تشكل مدادا في القوة الاخصابية وكانت الممارسات الجنسية تجري في الأعياد، والمناسبات الدينية، وهذا ما عرف بالبغاء الجماعي عند اليونان والرومان، واستمر ذلك حتى أننا نجده عند بعض القبائل والشعوب الآن. مثل هذه " الطقوس الجنسية ما زال قائما لدى كثير من الثقافات البدائية، ففي بعض الجزر الواقعة غربي غينيا الجديدة وأجزاء من شمال استراليا يعتقد الأهالي بان اله الشمس المذكر يهبط من عليائه مرة كل سنة ليحض آلهة الأرض المؤنثة، وذلك قبل بدء موسم الأمطار، فيتجمعون رجالاً ونساء تحت شجرة التين حيث يعتقدون ان الجماع الالهي يتم هناك، ويمارسون الجنس الجماعي الذي من شأنه حث الطبيعة على إطلاق خيراتها الكامنة، فيهطل المطر وتنبت الأرض وتتكاثر الماشية وتخصب أرحام النساء ويجري الطقس في جو ديني رصين، لا يوحي برغبة المشاركين في إرضاء نوازعهم الجنسية الفردية "[٤٠].

ومثل هذا الأمر كانت تمارسه إحدى الفرق المسيحية الغنوصية السورية. وهذا ما نقله القديس إيفانيوس، اعتقادا من الفاعلين أن ذلك دم المسيح. وكذلك يفعلون مع النساء الحائضات، وذلك تفسيرا خاصا منهم لما ورد في سفر رؤيا يوحنا على لسان المسيح عليه السلام " واراني نهرا صافيا من ماء حياة لامعا كبلور خارج عن عرش الله، وعلى النهر هنا

وهناك شجرة حياة تضع اثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها وورق الشجر لشفاء الألم[٤١].

ورأى بعض الباحثين أن السيدة العذراء ما هي إلا الأم الكبرى التي تتجسد فيها الأنوثة الأبدية وهي صاحبة السلطان الفاعل في خلق الحياة وديمومتها، بمعنى أن الحياة الغريزية تمثل في السيدة العذراء لانها تمثل الأم الكبرى السرمدية في ذاتها وفلسفتها " فمريم العذراء التي ظهرت في فلسطين وعاشت هناك عددا من السنين ليست الا تجليا في المكان للأم الكبرى مريم الموجودة قبل الزمان وقبل المكان والتي ستبقى بعد فناء المكان وتوقف جريان الزمان . . "[٤٢]

الأنماط التعبيرية عن المعرفة:

من هنا نستنتج أن تطور المعرفة عند الإنسان جعلها في تناول يد الناس جميعاً، وأصبحت متداولة تداولا ينم عن تفاعل مع ديمومة في العطاء، أي أن كل مجتمع يفيد من الحياة بمسألة معينة قد يضيف عليها أو يحورها كي تتلاءم مع قيمه أو ذوقه وثقافته وغير ذلك، لأن تطور الإنسان إلى جماعات أدى إلى اتساع العلم والمعرفة من خلال اتصال كل جماعة بالجماعات الأخرى حتى نرى طرائق تعبيرية مختلفة. فمن الناس من ينظر إلى المسألة من منظار فلسفي، والآخر تأخذه الدهشة ويتملاه العجب، والآخرون قد يبحثون عن الأسباب والمسببات لخلق الظواهر ومجرياتها، مما جعل الشعوب تتطور شيئا فشيئاً، كي تنتقل البشرية من الحياة البدائية إلى الرعوية ومن ثم إلى الاستقرار الذي أوجدته النظم الزراعية. وفيما بعد التجارة التي قاربت في العلاقة بين الناس ووحدت بعض المجتمعات حسب المصالح المتبادلة وكذلك قربت المسافات، مما أدى إلى وفرة المال والسلع على حد سواء.

كل ذلك جعل العلاقة تتوطد بين أفراد المجتمع ومن ثم بين المجتمعات التي كانت القبيلة تشكل نواتها، مما حدا ببعض المهتمين التفرغ لنقل الأخبار وتسجيل ما يدور في حب الحياة وصعابها، لأن لحظات التوجس والتعجب والريبة أصبحت لا تكفي أو لا تغني عن الأمر شيئاً. لذلك بدأت ظاهرة القصاصين تتجذر وتتسع كي تشمل شريحة أكبر، بمعنى تخدم شريحة واسعة من الناس التواقين للسماع والمتشوقين للتجدد أو الترويح عن الذات. لان مهام القصاص أصبحت متسعة كما هي الحياة، مما حدا بالناس إلى حفظ أسماء القادة والبارعين والعظماء الذي سجلوا قيما وتضحيات جساماً. وهذا الأمر لم ينحصر فقط بما

يخص الكبار، وإنما امتد ليشمل الأحداث العامة والأحداث المهتمة في تطور الشعوب ومسيرتها. لذلك أصبحت الوسائل تتلاءم مع الواقع، فإذا كان الواقع ساذجا أصبحت الحالة التعبيرية ساذجة. وإذا تطورت الحياة بقيمها ونظامها المتكامل نجد الوسائل الترفيهية والتعبيرية قد تطورت هي الأخرى، فمن الحكاية البسيطة التي كانت تسرد على نطاق أسرة بسيطة التكوين والتركيب وبطريقة تكاد تكون مبهمة إشارية أم تعبيرية، بوساطة لغة معينة، إلى الرسم والحفر اللذين يشكلان معبراً للوصول إلى الحقيقة المقصودة والمرادة. ولكن مع تطور ملامح المعرفة وتأصلها في العقول والنفوس أخذت عقلية الروي تشحذ خياله، فيعطي الخيال حرية تتم عن قصد مراد كي يلبس المتحدث الحدث ألوانا من التفاصيل والثنايا الجديدة التي تستقطب عواطف الناس وأفكارهم، مما جعل حالة المناورة والمناضلة تظهر بين القاصين والرواة حتى ينعكس ذلك على الأعمال التي تقدمها الجماعات أو القبائل أو الأفراد الأبطال الذين وضعوا في عقولهم وقوة أجسادهم خدمة لمصلحة الجميع. لذلك حفظ لنا التاريخ سيرة مصلحين ومفكرين وأبطال حروب دون النظر إلى قوميتهم وأعراقهم وعقائدهم، بذلك نتعرف على زرادشت وسيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد وغيرها من السير التي تأثرت بثقافات الشعوب كما هي ألف ليلة وليلة. ولم يكتف الناس بسرد سير الملوك والعظماء وإنما دخلت الحكاية الخرافية طريق السرد والإخبار، حتى تحول الأمر من الأناشيد البدائية الأولى التي استخدمت تقربا للقوة الغيبية إلى حكايات السحر والشائعات ومن ثم أساطير الآلهة وسيرتها، وتصوير قوى الطبيعة التي تزخر بالأسرار، وبما هو بعيد عن الإدراك.

كل ذلك أدى إلى خلق حالة التقبل من سرد الحقيقة المجردة إلي مجريات الأمور والقصص البدائية. ومن ثم إلى الأسطورة فالتاريخ بقصصه حتى يصل الأمر إلى القصص الخيالي الذي عرف فيما بعد بالأدب والقصص الشعبي، مع المرور بمراحل التصفية والخلاص من الزوائد.

الخاتمة

بعد أن شخصت هذه الدراسة في النور اتضح لنا أن المعرفة الإنسانية متشعبة التوجهات، راسخة الجذور في عمق التاريخ، وقد تطورت واتسعت باتساع أفق الإنسان ومثابرته، لذا تعددت مصادر المعرفة لديه، إن كانت تلك المصادر دينية أم ابتكارية أم اقتباسية من المحيط والآخرين، بذلك تعمقت صلة الإنسان بمحيطه وتفاعل مع موجودات الكون المتعددة، حتى غدا يتعامل مع المحسوسات والمجردات ومن ثم توجه صوب التفاعل مع النفس والروح والغيبيات حتى أيقن أهمية الدين والمعرفة الإلهية، إذ اتخذ السحر وأعمال العرافين مدخلا لمعرفة الذات الخفية حتى أيقن حقيقة الخالق بفطرته السوية وجاء تأكيد ذلك بوساطة الأنبياء.

الهوامش

١ . القرآن الكريم سورة البقرة آية : ٣٠
٢ . البقرة، الآية : ٣٥
٣ . العراق في التاريخ، مجموعة من الباحثين العراقيين، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣ ص٢٢
٤ . الأنعام، الآية : ٤٥
٥ . النجم، الآيتان : (٥٠-٥١)
٦ . الحاقة، الآية : ٨
٧ . الفرقان، الآية : ٣٨
٨ . ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء طبع جوزيف هيل لندن ١٩١٦ ص٨ عن طبعة مصورة بيروت .
٩ . نقلا عن : في أدب الأطفال، دكتور علي الحديدي، مكتبة الانجلو المصرية ط٢ ١٩٧٦ ص١٤ .
١٠-الكزاندر هجرتي كراب، عالم الفلكلور، ترجمة رشدي صالح، دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧ ص٢٠-٢١ .
١١-المائدة، الآيتان : (٣٠-٣١)
١٢-فراس السواح، لغز عشتار الألوهية المؤنثة، واصل الدين الأسطورة-ط٥ ١٩٩٣ ، توزيع دار علاء الدين دمشق، طبع مطابع العجلوني دمشق، سوريا ص١١٨-١١٩
١٣-د. سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، مطبعة دار المعارف -القاهرة ١٩٦٦ ص١٣١-١٣٢ .
١٤-التوراة- سفر التكوين ٦ : ٥-٨ .
١٥-سفر التكوين ٨(١٧-٣٤)
١٦-د. فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع السمأوية، مطبعة أوفيست الاخلاص، بغداد ١٩٧٥ ص١١٢ .
١٧-المصدر نفسه ص١١٣ .
١٨-سورة الأنعام، الآيات : ٧٤-٧٧ .
١٩-د. محمد صقر خفاجة، أساطير اليونان، ج١ ط١ القاهرة ١٩٥٣ ص١ .
٢٠-البخاري، شرح صحيح البخاري، ج، ٧ المطبعة الميمونية مصر ١٣٢٦ه ص٨
٢١-نقلا عن : في أدب الأطفال دكتور علي الحديدي ص٢٢
٢٢-سفر التكوين الإصحاح الأول (١-٢) .
٢٣-فراس السواح، لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ص٧٨ .
٢٤ . سفر التكوين : الإصحاح الأول : (٣-٤) .
٢٥ . سفر التكوين الصحاح الأول (١٤-١٩) .
٢٦ . انظر فراس السواح، لغز عشتار- ص٨٣-٨٤ .

٢٧ . فراس السواح، لغز عشتار- ص١٣٤ .
٢٨ . محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ١٩٧٩ ص١١٧
٢٩ . محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب ص٨٩ .
٣٠ . سورة البقرة الآية -١٠٢ .
٣١ . انظر: تفسير الطبري، تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة المطبعة الميمنية القاهرة .
٣٢ . الشيخ عبد الكريم الجبلي، الإنسان الكامل . في معرفة الأواخر والأوائل ج١ ص١٠٣ .
٣٣ . محيي الدين بن عربي - الفتوحات المكية ج١ص٢٢٠
٣٤ . سورة الرحمن- الآية (٢٦-٢٧)
٣٥ . لغز عشتار ص١٧٣ .
٣٦ . نقلا عن لغز عشتار ١٧٣
٣٧ . لغز عشتار ص١٧٨
٣٨ . فراس السواح، ملحمة جلجامش دار الكلمة بيروت ١٩٨١ ص٩٧-١٠٠
٣٩ . النووي- رياض الصالحين، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي، القاهرة ص٧٥ .
٤٠ . نقلا عن لغز عشتار ص١٨٩
٤١ . سفر رؤيا يوحنا، الإصحاح ٢٢ : ٢
٤٢ . د. الأب متري هاجي اثناسيو، الموسوعة المريمية دمشق ١٩٨٢ ص٣٢٨ .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- الكتاب المقدس
٣- الاب متري هاجي اتناسيو، الموسوعة المريمية، دمشق، ١٩٨٢
٤- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، طبع جوزيف هيل لندن، ١٩١٦
٥- الكزاندرا هدرتي كراب، عالم الفلكلور، ترجمة رشدي صالح، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧
٦- البخاري، شرح صحيح البخاري، ج١ ط١ القاهرة ١٩٥٣
٧- سهير القمأوي، الف ليلة وليلة، مطبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦
٨- الشيخ عبد الكريم الجبلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ج١ لبنان، د.ت
٩- الطبري، تفسير الطبري، المطبعة الميمنية، القاهرة.
١٠- النووي، رياض الصالحين، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي، القاهرة
١١- فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، مطبعة أوفيست الاخلاص بغداد ١٩٧٥
١٢- فراس السواح، لغز عشتار الالوهة المؤنثة واصل الدين والاسطورة ط٥ ، توزيع دار علاء الدين دمشق، طبع مطابع العجلوني، دمشق سوريا ١٩٩٣
١٣- فراس السواح، ملحمة جلجامش، دار الكلمة، بيروت ١٩٨١
١٤- مجموعة من الباحثين العراقيين، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٨٣
١٥- محمد صقر خفاجة، أساطير اليونان، ج١ ط١ القاهرة ١٩٥٣
١٦- محمود سليم الحوت، الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ١٩٧٩
١٧- محيى الدين بن عربي الفتوحات المكية، ج١ ، بيروت، لبنان